

مشاركة في الخجل



"سأخبرك بكل ما فعلوه بي"

جملة قالها طفل سوري نازح، متوءداً جميع الشهود بعقاب سماوي ، وهو يحتضر، نطقها بفمٍ يابسٍ، بسبب الحمى، وأسنان ترتجف من البرد، والجوع كما نقل تقرير تلفزيوني لفضائية أوروبية بثّ مشاهد مؤلمة لعوائل سورية تعاني الأمرين، هذه الجملة استوقفتني كثيراً، وجعلتني أشعر بالخزي، والعار، لأنّنا، كمثقفين، نقف عاجزين أمام ما يجري في عالمنا المضطرب، وهذا لن يعفينا من مسؤوليتنا الإنسانية، والأخلاقية تجاه هذه العوائل، التي أعدادها في تزايد، وقد نزحوا عن ديارهم بسبب أعمال العنف، وحذرت منظمات إنسانية، من "تفاقم أوضاعهم مع بدء تساقط الثلوج في إقليم كردستان العراق الذي يستضيف القسم الأكبر منهم ويواجهون صعوبة في تحمل صقيع الشتاء"، مع انخفاض درجات الحرارة، ونزول أمطار في مناطق مختلفة من عالمنا العربي، وتساقط الثلوج في بعض المناطق منها في سوريا الجريحة، التي تئنّ منذ أكثر من ثلاثة أعوام، والعراق بعد هجمة "داعش" الوحشية، والسؤال الذي يطرح نفسه: ماذا فعلنا لهم؟

فكلّ مساءً، ونحن ننعّم بدفء بيوتنا، نتابع ما تعرضه علينا نشرات الأخبار من صور، لعوائل نازحة عن ديارها تعيش في العراء، وإن وجدت سقفاً، فخيمة لا تصدّ برداً، ولا تمنع زخة مطر من أن تتسرب عبر ثقب الريح إلى الأجساد المرتعشة، وليس تحت أقدامها سوى تراب، ورمل بارد، وإن وجدت بساطاً، فيكون متخماً بالرطوبة، مشرّدون: أطفال بلا مدارس، ولا طفولة، ونساء بلا أزواج، ولا مرايا سوى مرايا الأوجاع، وشيوخ بلا عكّازات، ولا نظّارات طبّيّة، موتى بلا أكفان، حاضر بلا مستقبل، عوائل بأكملها تركت ممتلكاتها، وبيوتها، هرباً من الحرب الدائرة، ولكنّها وجدت نفسها كـ"المستجير من الرمضاء بالنار"، فكلّ يوم ترتفع نسبة الوفيات بسبب البرد، وسوء التغذية، وتفشّي الأمراض، وقلّة العناية الصحية، فضلاً عن انقطاع الأطفال عن المدارس، وما لهذه المشاكل، من نتائج سلبية ستضع أوضاعها على مستقبل منطقة عرفت بثرائها الثقافي، والحضاري. واليوم نتابع تقارير المنظّمات الإنسانيّة، وما تنقله وسائل الإعلام، من أخبار هؤلاء النازحين، نشعر بالألم لأنّ مشاكل النازحين تتفاقم، ولا نجد من يقف إلى جانبهم، يقول أمين عوض مدير قسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بالمفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة "إنّ العالم لا يتحرك لتلبية حاجات اللاجئين بما يدفعنا إلى الشعور بالخل من أنفسنا"

"وأنت تعدّ فطورك

فكّر بغيرك

لا تنس قوت الحمام"

قالها الشاعر محمود درويش، ليضعنا أمام مسؤوليتنا الإنسانيّة، ليس تجاه إخواننا من البشر الذين يفتربهم الفقر، والجوع، والفيضانات، والأوبئة، في كلّ أصقاع المعمورة، بل إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى الكائنات الأخرى التي تشاركنا نعمة الحياة، من طيور، و فراشات، ونبات، وشجر، فنمدّ لها يد العون، لنؤكد إنسانيتنا، وانتمائنا إلى الوجود، وهذا واجب ديني، وأخلاقي، إذ أنّ كلّ الشرائع والأديان أكّدت على ذلك، وفي الحديث الشريف "مَنْ سَدَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، سَدَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ نَفَسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ". فهل نكتفي بالخل؟ أم نسعى معاً لنخفّف من معاناة طفل جائع، لننقذه مما هو فيه، قبل أن يلحق رفيق تشرّده السوري الذي توعّد بأن يشكوا ضعفنا، وقلّة حيلتنا إلى الله.

